كهوف مظلمة

عادل العبد الجبار

ح دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٣٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العبدالجبار، عادل عبدالله
كهوف مظلمة./ عادل عبدالله العبدالجبار-
الرياض ١٤٣٤هـ
٥٠ ص ؛ ١٥ × ٢٠ سم.
ردمك: ٩-٢٦١-٥٠٦-٦٠٣-٩٧٨
١-القصص الاجتماعية ٢-الوعظ والإرشاد -
قصص أ- العنوان
ديوي ٨١٣,٠٨٣٩ ١٤٣٤/٣٩١٨

رقم الإيداع: ١٤٣٤/٣٩١٨
ردمك: ٩-٢٦١-٥٠٦-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م

دار الحضارة للنشر والتوزيع
ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥
هاتف: ٢٤٩٦٥٥٥ - ٢٧٨٧٣٣٣ فاكس: ٢٤٨٣٠٠٤
المستودع تلفون: ٢٤١٦١٣٩ فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨

تصميم 0554267436

كهوف مظلمة

تمهيد

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه ..

أما بعد:

فقد زرت المقبرة ..يوما من الأيام مع صديق غال على قلبي .. وبعد أيام تفاجأت يأتيني من جواله الذي حفظته رقما ورسما.. واسما ومعنى .. مفادها: صاحب الجوال توفي في حادث سيارة، والصلاة عليه بعد صلاة الجمعة ..

فجمعت هذه المادة حول هذه القبور .. التي زرتها وزرتموها .. مـرارا وتكـرارا .. حتى غيبت في ترابها مـن أحبونا وأحببناهم .. لننتظر لحظة رحيلنا لها .. طال بنا المقام أو قصر.

كهوف مظلمة.. لحظات ساكنة.. ومواعظ بالغة..

كهوف مظلمة.. نصائح مؤثرة.. تصلح لجميع الأعمار..

كهوف مظلمة.. ينسى فيها الاسم.. وينقطع بها الذكر..

قيل للحسن: يا أبا سعيد..

كيف نصنع؟.. نجالس أقواماً يخوفوننا.. حتى تكاد قلوبنا تطير؟!.. فقال: والله إنك إن تخالط أقواماً يخوفونك حتى تأمن.. خير لك من أن تصاحب قوماً يؤمنونك حتى تدرك الخوف!

إنـــي أرقـــت وذكر الموت أرقـنـــي

فقلت للدمع أسعدني فأسعدني

قلوبنـا.. تحتـاج إلى مواعـظ بالغـة.. قلوبنا.. تريـد حياتها ورحمتها.. في قوله جل وعلا..

(وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين).

قلوبنـا.. تعيش في زمـان فتنة ورقة دين.. مـا إن تراكمت في المحـن والمصائـب ومـن أشدها وأخطرهـا.. مصيبـة الدين، التي هلك فيها كثير من الناس حتى الصالحون.

فلو كان سهم واحد لاتقيته

ولكنـــه ســهـم وثان وثالث

كم من رجل عصى ربه فقسى قلبه وجمدت عيناه!

كم من امرأة نسيت ربها فنسيها وأنساها نفسها.

كهوف مظلمة.. لنا فيها آية من أعظم الآيات والعلامات.

كهـوف مظلمـة.. لنـا معهـا وقفـة لا كالوقفـات وحديـث لا كالأحاديث..

كيف لا؟!

و الله عـز وجل يقول: ﴿ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ ﴾ وأي عاقل لا يريد الفوز والنجاح الحقيقي..

«كان هشام بن أبي عبدالله.. إذا فقد السراج في بيته تململ على فراشه.. وكانت امرأته تأتيه بالسراج.. فقالت له في ذلك.. فقال: إذا فقدت السراج تذكرت ظلمة القبر».

«بكى.. أحد السلف عند الممات.. فقيل له: لا بأس عليك.. فقال: آه.. ليس إلا هذا قد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة».

معشر الأحبة..

بالأمس.. أعني أمسنا القريب بل اليوم بل غداه في كل يوم شدني منظر هذه الكهوف المظلمة.. والمنازل العجيبة.. وقبل ذلك هول منظر الجنازة وهي محمولة تقدم للصلاة عليها.. ثم ما أن تلبث حتى تحمل مرة أخرى لتوضع على الأكتاف يسار بها إلى «المقبرة» وخلفها المشيعون لها في حالة مهولة .. ومشهد مبكي.. ليقف الجميع في صمت رهيب.

إن في المقابر لعبرة.. أما فيها الزوجة التي تملأ النفس فرحاً وسروراً.. لو كشف الأمر لك.. لقلنا كم نمت بقربها ناسياً الهموم والأحزان.. والآن.. هل تستطيع أن تنام بعد موتها بجوارها؟! بل لو كشف عن وجهها هل تأنس بها كما لو كانت على قيد الحياة؟! وقل مثل ذلك في الزوج مع زوجها...

كهوف مظلمة.. أما فيها الوالد العزيز والأم الحنون اللذان نزعا من المنزل ووسدتهما اللحد والقبر..

إن فيها الولد.. فلذة الكبد وعصارة القلب الذي لما مات كأنما قلبك أخذ من بين جنبيك.. صغيرك طالما هفا إليك وارتمى في حضنك، طالما ضمك ولعب معك وقبلته وقبلك ينزل وحيداً في الكهوف المظلمة وكفى!

لمعتبر ملك المقابر فامض يا صاح وزورا
سأل الأحداث فيها أين من عاش أميرا
أو رفيعاً أو زيراً أو شريفاً أو كبيرا
أو رئيساً أو مديراً أين من حاك الحريرا
أين ما شاد قصوراً قد دعو ثم اجابوا

ضمة القبر:

لنا معها وقفة لا كالوقفات، وذكرى أبكت الدمع، وأحرقت القلب.. ضمة القبر.. ما نجا منها أحد حياً.

ضمة القبر.. لأجلها.. بكت العيون.

ضمة القبر.. لأجلها.. خاف الصالحون.

ضمة القبر.. لأجلها.. عاد التائبون

فكفى.. بضيق الكهوف المظلمة عظة وعبرة فكيف بضمتها وضغطتها.

سؤال.. في غاية الأهمية.. والإجابة عنها أهم وأهم..

ضمة القبر.. ما هي؟ ما حقيقتها؟ ومن تنال؟ ومن ينجو منها ومن لا ينجو؟

كهوف مظلمة.. كهوف ضيقة.. اشد منها ضمتها وضغتطها.. نعم هذه الضمة التي لا تشعر بها الآن لكننا سنعاني منها ولن ينجو منها أحد مهما كان حتى الطفل الصغير فيكف بالكبير حتى ولو كان عابداً صالحاً أو سيئاً عاصياً.. فكفى بضيقها عظة وعبرة فكيف بضمتها وضغطتها.. وكيف بها حينئذ ستكون؟ في الحديث

أن الكافر والفاجر والمنافق يعانون من الضغطة فتتقارب إليهم جنبات القبر حتى تختلف أضلاعهم ويصيبهم ما يصيبهم..

الحديث عن الضمة.. يطول، لكن ما تذكر الضمة إلا ويذكر سعد بن معاذ وخبر وفاته وكيف كانت؟ نعم.. سعد بن معاذ.. لنا في وفاته عظات، فإلى تفاصيلها.. كيف تتعرف على هذه الضمة أعنى «ضمة القبر».

نزل ملك الرسالة (جبريل) على محمد ﷺ قال له.. يا رسول الله.. يا نبي الله.. من الذي مات من صحابتك اليوم؟

فخرج الرسول ﷺ إلى بيت سعد بن معاذ قد امتلأ فيا ترى بم امتلأ؟ بالناس كلا فلم يعلم بعد إلا الرسول ﷺ بالجن؟ كلا فأنهم لا يعلمون الغيب أبداً.. لقد امتلأ بيت سعد بن معاذ بالملائكة التي أنزلها الله وكم أنزل الله في بيته؟ ٣٠ ألف ملك لا ٥٠ ألف ملك لا روى النسائي من حديث ابن عمر وسعد بن أبي وقاص بسند حسن أن رسول الله قال: أنزل الله ٧٠ ألف ملك يشيعون جنازته وفتحت له أبواب السماء..

بل في الصحيح عن جماعة من الصحابة قال جبريل عليه الصلاة والسلام.. «يا رسول الله: إن عرش الله جل وعلا اهتز لموت سعد بن معاذ»...

ولما حملوه وجدوه خفيفاً وكلنا نعرف ثقل الميت.. إذا خرجت روحه.. فعجب المنافقون وقالوا.. ما لنا نرى خفة في سعد بن معاذ وكان سميناً بديناً.. فسألوا رسول الله ﷺ فأجابهم كما عند النسائي من حديث أنس بن مالك بسند حسن.. قائلاً: «لستم بالحملة إنما الحملة ملائكة أنزلها الله».

وفي صحيح مسلم.. قال رسول الله ﷺ: «لقد استبشرت الأرض بمقدم سعد بن معاذ.. ولقد ضم القبر سعداً ضمة لو

نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ» ثم خرج عنه.

معشر الأحبة:

تأملوا حال هذا الصحابي الصالح وما نال من كرامات في وفاته! لقد ضمه القبر مع ما نال من حسن طاعة، بل خمس كرامات سبق ذكرها، بل قال رسول الله ﷺ: «لو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ»..

يرى رسول الله ﷺ «ثياباً جميلة لينة.. فيعجب الصحابة من ليونتها وجمالها.. فيقول رسول الله ﷺ: «لمناديل سعد بن معاذ.. هي ألين منها»

فيا طلاب الجنة (الجنة.. الجنة!!) التي سجنا عنها بهذه الحياة، فالقبر للمؤمن روضة من رياض الجنة.

وأعمل لدار البقاء رضوان خازنها
الجار أحمد والرحمن بانيها
أرض لها ذهب والمسك طينتها
والزعفران حشيش نابت فيها
دلالها المصطفى والله بائعها
وجبرائيل ينادي في نواحيها
من يشتري الدار في الفردوس يعمرها
بركعة في ظلام الليل يحييها

نظر عمر بن عبدالعزيز وهو في جنازة إلى قوم قد تلثموا من الغبار والشمس وانحازوا إلى الظل، فبكى وأنشد:

من كان حين يصيب الشمس جبهته
أو الغبار يخاف الشين والشعثا
ويألف الظل كي تبقى بشاشته
فسوف يسكن يوماً راغماً جدثا
في قعر مظلمة غبراء موحشة
يطيل في قعرها تحت الثرى اللبثا

معشر الأحبة:

الموت والحياة.. متناقضان تناقض النور والظلام والصيف والشتاء..

الموت.. لحظة مهمة في حياة الإنسان،

لحظة يكتب فيها أنه منتقل من هذه الدنيا..

تكون اللحظة التي يلقى فيها الإنسان آخر اللحظات على أبنائه وبناته وإخوانه وأخواته وكل أصحابه وأحبابه..

لحظة حاكمة.. وساعة فاصلة.. وأنفاس هي الأخيرة...

فلا إله إلا الله... يوم أن يتبدد على الوجه معالم السكرات..

فلا إله إلا الله.. يوم أن تخرج من الصدر الآهات والزفرات..

إنها.. لحظة يؤمن فيها الكفار.. ويؤمن فيها الفاجر، ويعرف الإنسان حقارة الدنيا.

قال ابن مسعود: ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله..

أحبابي..

ولا يتم لقاء الله إلا بعد الموت.. وتجرع غصصه وآلامه لكننا غفلنا عنه لأن الدنيا أشغلتنا عن ذلك.

كهوف مظلمة.. إنها الخطب الأفظع والأمر الأشنع..

كهوف مظلمة.. هدمت اللذات.. وقطعت الراحات

كهوف مظلمة.. قطعت الأواصل.. وفرقت الأعضاء وهدمت الأركان...

كهوف مظلمة.. إنها أمر مهول.. وخطب عظيم وجلل جسيم..

كأن لم تسمع بأخبار من مضى

ولم ترَ في الباقين ما يضع الدهر

فإن كنت لا تدري فتلك ديارهم

محاها مجال الريح بعدك والقبر

كهوف مظلمة.. كدر ذكرها الأيام وبعثرها الأحلام.

كهوف مظلمة.. إنها الطريق الحرجة.. والمسلك الشاق، والقنطرة المضطربة، والعقبة الكؤود.. ثبتنا الله وإياكم فيها بالقول الثابت.

يوم أن يدنوا ملك الموت من القبر فينادي.. فما النداء.. ينادي.. اخرجي أيتها الروح الطيبة.. أو اخرجي أيتها الروح الخبيثة..!

وفي لحظة واحدة.. أسلمت روحك إلى بارئها.. والتقت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق.. فهناك.. يحبس العبد.. بدار غريبة.. ومنازل رهيبة عجيبة..

فلا إله إلا الله في لحظة واحدة.. ينقل الإنسان من دار الهوان إلى دار النعيم.. ومن ضيق الدنيا إلى سعادة الآخرة.. ومن جوار المخلوقين إلى جوار الديان.. جل جلاله وتقدست أسماؤه.

إنها لحظة.. طويت فيها صحيفتك تتمنى الحسنة ولكن؟

إنها لحظة.. تجزم فيها أن الدنيا انقضت والأيام انتهت..

إنها لحظة.. تنزل فيها في أول ليلة في ظلمة القبر..

هناك.. في عداد الغرباء.. بين الأجداث والبلى.. فكم من قبور في كهوف مظلمة.. قال تعالى:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾.

وقال تعالى:

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾.

تذكر أخي الحبيب..

أهل دارك، تذكر حزنهم، وبكاءهم على فراقك، فالبنت عبرى كئيبة لموتك وارتحالك ولو كانت دموعها دماً ما كانت

وربي ملومة!

تذكر.. زوجتك وهي الثكلى المهمومة الحزينة وكفى.. تتقلب في ذاكرتها أيام الاجتماع والالتقاء وأن ذلك قد انتهى وانقضى..

أما أبناؤك فقد جدوا في تجهيزك كما تمكن في قلوبهم الألم والشجن على موتك لتتسابق دموعهم الحرى في خدودهم لتبادر اليد فتمسح وتدعو لك بالرحمة والمغفرة.

تذكر.. صغارك.. وأطفالك حين يجتمعون ويتطلعون تطلع الحيران متسائلين أين أبونا؟ أين والدنا؟ سؤال ملؤه العبرة والألم..

تذكر.. اجتماع الناس في بيتك للتعزية.. والأطفال.. أيتامك في حالة مهولة.. قد جلسوا في زواية من زوايا المنزل والحزن يخيم على محياهم.

واقبلت الصغرى ترنح خدها

على وجنتي حيناً وحيناً على صدري

وتخمش خديها وتبكي بحرقة

تنادي «أبي أني غلبت على الصبر»

حبيبي أبي «من لليتامى تركتهم»

كأفراخ زغب في بعيد من الوكر

في غزوة مؤتة يرفع البطل الشجاع جعفر بن أبي طالب الراية بيمينه فتقطع، فيرفعها مرة أخرى بشماله فتقطع فيجعلها بين جنبيه فتأتيه السهام ليكتب عند الله شهيداً من الشهداء.. فيأتي الخبر رسول الله ﷺ وحياً فيخرج من مسجده ذاهباً إلى أين؟ إلى بيت جعفر بن أبي طالب فيطرق الباب.. فتفتح له.. زوجة جعفر « أسماء بنت عميس» وقبل هذا أحبابي الكرام.. إن رسول الله ﷺ وجعفر بن أبي طالب شبيهان أي يشبه أحدهما الآخر في الخلقة فكان إذا مشى رسول الله بجانب جعفر لا

يعرفونهما من شدة الشبه بينهما.. الشاهد أنه طرق الباب ففتحت أسماء فألقى عليها رسول الله ﷺ السلام.. وقال لها إلي بأبناء أخي جعفر بن أبي طالب.. دخلت وهي لا تعرف ما يريد؟ وما عساه فاعل بهم؟ دخلت فحسنتهم وجملتهم وأخرجتهم على رسول الله ﷺ.. فلما رأوا رسول الله ﷺ واقفاً بالباب أخذوا يركضون إليه فرحين يحسبون أن الواقف بالباب هو أبوهم ووالدهم جعفر قد عاد من المعركة قد عاد من الغزوة لشدة الشبة بين والدهم ورسول الله ﷺ فلما رآهم ورأى انكبابهم وركضهم إليه دخل وجثا على ركبتيه وضمهم وأخذ يقبلهم ويشمهم ﷺ وعيناه تذرفان فرأت

أمهم أسماء بنت عميس هذا المشهد؟ وفي نفسها ماذا حصل؟ وعلام البكاء؟ فقالت: يا رسول الله أوقد أصيب جعفر بن أبي طالب، فرفع رسول الله ﷺ رأسه وعيناه تذرفان وعيناه تدمعان قال: نعم يا أسماء! فبكت حزناً على أطفالها وصغارها بل أيتامها، فقال ﷺ يا أسماء لا تخشى عليهم الضيعة، ثم قال: أني لأرى لجعفر بن أبي طالب جناحين يطير بهما في الجنة.

كهوف مظلمة..

أغدت الأطفال أيتاماً..

والنساء ثكالى..

والزوجات أرامل..

والمنازل هماً وحزناً..

كهوف مظلمة.. وقفنا عليها كثيراً.. فنحن السعداء بوعظها الأشقياء بنسيانها..

أحبابنا الكرام..

القبر.. أول منازل الآخرة.. كيف بنا وقد أهملنا بنيانه وقوضنا أركانه وليس بيننا وبين الانتقال إليه إلا قول، فلان

مات أو فلانة ماتت..

قال رسول الله ﷺ «ما رأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه.. ».

وقال رسول الله ﷺ «القبر أول منازل الآخرة.. فمن نجا منه فما بعده أيسر منه ومن لم ينج منه فما بعده أشد منه...

كلمات نورنيه.. كلمات إيمانية.. ملؤها الصدق والتصديق

قال ابن مسعود - رضي الله عنه - :

ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله.. ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه.

أحبابي ..

ولا يتم لقاء الله إلا بعد الموت.. وتجرع غصصه وآلامه لكننا غفلنا عنه لأن الدنيا أشغلتنا عن ذلك.

كهوف مظلمة.. تنادي ابن آدم.. تناديك.. وتقول.. إنما أنت أيام.. كلما مضى منك يوم مضى بعضك..

فيا أبناء العشرين.. كم مات من أقرانكم وتخلفتم.

ويا أبناء الثلاثين.. أصبتهم بالشباب على قرب من العهد فما تأسفتم

ويا أبناء الأربعين.. ذهب الصبا وأنتم على اللهو قد عكفتم!!

ويا أبناء الخمسين.. تنصفتم المائة وما أنصفتم!!

ويا أبناء الستين.. في الصحيح قال رسول الله ﷺ: «أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغ ستين سنة».

معشر الأحبة

ليلتان اثنتان يجعلهما كل مسلم أمامه: الأولى وهو يداعب أولاده وصغاره.. في بيته مع أطفاله وأهله مفعماً سعيداً.. في عيش رغيد وفي عافية وصحة يضاحكهم ويضاحكونه.. والليلة التي تليها هي الثانية مباشرة أتاه فيها ملك الموت فوضعه في القبر وحيداً منفرداً..

فارقت موضع مرقدي يوماً ففارقني السكون
القبر أول ليلة بالله قل لي ما يكون

إنه الواعظ الصامت.. القبر بيت لكنه بيت تتجول فيه الهوام ويجري فيه الصديد وتخترقه الديدان..

في العاقبة لعبد الحق الأشبيلي..

كان يزيد الرقاشي، عابداً خائفاً من هول المقابر.. كثيراً ما كان يذكر بها. فلما حضرته الوفاة.. بكى وبكى حتى أبكى من حوله.. فقيل له.. علام تبكي رحمك الله

قال.. أبكي يوم أن يصوم الصائمون ولست فيهم

يوم أن يقوم القائمون ولست من بينهم

يوم أن يصلى المصلون ولست معهم

يوم أن يذكر الذاكرون ولست منهم!

يوم أن يتصدق المتصدقون ولست من بينهم!

من يصوم عني؟ من يقوم عني؟ من يصلى ويتصدق عني؟.. وأكب باكياً وقال: كيف لا أبكي والموت أمامي.. والقبر بيتي وداري والثرى فراشي والتراب عطائي والدود يأكل لحمي وعظمي... والجنة أو النار مآلي؟!

كهوف مظلمة.. ما هي؟ ما حقيقتها؟ ومن أهلها؟ وما حالهم فيها؟ هل رأيت القبور؟ هل أبصرت ظلمتها؟ هل أيقنت وحشتها؟ هل تأملت شدتها؟ هل لاحظت ضيقها؟ هل عاينت عمقها؟ هل تصورت لحدها؟ هل فكرت بهوامها وديدانها؟

هـل شعـرت بسكونها؟ هل رأيـت كيف جهز ترابهـا؟ وكيف صفت لبناتهـا؟ تسـاؤلات حائـرة في ظل فقـد الأهـل والأصحاب وموت الأرحام والأحباب وقد نزلوا الكهوف المظلمة.

في المدهش.. لأبي الفرج ابن الجوزي قال:

شيـع الحسـن جنـازة على شفـير القبر فقـال: إن امـرأً هذا آخـره لحقيـق أن يزهد في أوله «أي الدنيا» وأن أمراً هذا أوله «أي الموت» لحقيق أن يخاف من آخره..!

كهوف مظلمة.. أرقت كل حي.. وأخافت كل آمن

كهـوف مظلمة.. جـزع أمامها القياصـرة وصمت لحضورها الجبابرة.

كهوف مظلمة.. صبر لعاقبتها الزهاد.. وخاف لأجلها العباد.

في أخبار التابعين.. أن محمد بن واسع قالت عنه زوجته كان يلاعبني حين المنام ثم ينسل مني بعد أن نمت ويأخذ يصلي فقلت له: أبا محمد.. رفقاً بنفسك.

فقال باكياً:

ويحك يا أم محمد.. والله يوشك أن أرقد رقدة لا أستيقظ بعدها أبداً.

تأمل يذكرها بالعاقبة وساعة الصفر التي لا مناص منها.

ويصدق ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

كهوف مظلمة.. منزل حق، ووعد صادق، ووعيد شديد، مفرقة الأحباب، ومقربة الحساب، بها يعرف الفريقان منازلهم إما في الجنة وإما في النار..

قال بعض الحكماء: الموت يجر الحياة، والنفس تجر الشهوات، والقبر يجر الندامات، وعفو الله يجر الخطيئات.

كهوف مظلمة..

كهوف.. بكى منها العلماء..

كهوف.. شكا لأجلها الحكماء..

كهوف..رثا إليها الشعراء..

كهوف.. تليت لأجلها الآيات.. وحفظت من هولها العظات وسكبت لها العبرات.. إنها كهوف ضيقة.. كهوف موضحة.. كهوف مخيفة.. كهوف مبكية.. كهوف مفزعة.. كهوف واعظة..

في التذكرة للإمام القرطبي:

زار علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – المقبرة يوماً فقال: اعتبروا يا أهل الديار.. نطق بالخراب فناؤها.. وشيد بالتراب بناؤها.. فمحلها مقترب.. وساكنها مغترب.. ثم قال

يـا معشر أهل القبور... ما خبركم؟ ما شأنكم؟ اخبرونا عنكم أو نخبركم؟ فقال: يا أهل المقابر.. إن خبركم عندنا.. أن أموالكم قسمت.. وبيوتكم سكنت.. وزوجاتكم نكحت.. ثم بكى حتى ابتلت لحيته.. ونحب صوته.. وقال:

لو أجابوا لقالوا: إنا وجدنا أن خير الزاد التقوى

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾.

كهوف مظلمة.. كدر ذكرها الأيام.. وبعثر همها الأحلام

كهوف مظلمة.. الطريق مرتجة.. والمسالك الشاقة .. والقنطرة المضطربة.. والعقبة الكؤود..

عند حافة القبر.. لتودع الجنازة في مشهد طالما تكرر ورأيناه وما عايناه.. والسعيد من وعظ بغيره.. والشقي من وعظ بنفسه..

تروعنا الجنائز مقبـــلاتٍ

ونلهو حين تذهب مدبراتٍ

أخي..

تأمل وفكر.. كم هي المرات التي دخلنا فيها المقبرة ورأيناها ولكن!!

أما يشبه القبر الكهف المظلم وكأنها مقابر في كهوف مظلمة، بلى وربي.. كيف والقبر والكهف يشتركان في الظلمة.. يشتركان في الوحشة والوحدة والعاقبة المجهولة.. يشتركان في أنهما مأوى الهوام والحشرات والديدان. وكل ذلك بدون إذنٍ ولا استئذانٍ..

يا ليت شعري إذا ما دفنت كيف تكون
لو قد تركت صريعاً وقد بكتك العيون
لا تأمنن الليالي فكلهن خوان

إن القبـور سجـــون ما مثلـهــن سجــون
كم في القبور قـرون ممــن مضى وقـرون
ما فــي المقابر روح عن التـــراب مصـون
لا تـــدفع الموت عمن حل الحصون حصون
ما للمنـــايـا سكـون عنـــا ونحن سكـــون

أخي الحبيب..

ابك الآن على نفسك واسألها..

كم صلاة أضعتها؟

كم جمعة تهاونت بها؟

كم صيام تركته؟

كم زكاة بخلت بها؟

كم حج فوته؟

كم من المعروف تكاسلت عنه؟

كم نظرة محرمة أصبتها؟

كم كلمة فاحشة تكلمت بها؟

كم أغضبت والديك ولم ترضهما؟

كم قسوت على ضعيف ولم ترحمه؟

كم من الناس ظلمته؟

كم من الناس شتمته؟

كم من الناس اغتبته؟

كم.. وكم.. تساؤلات ما أعددت لها في هذه الكهوف المظلمة.

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾.

قال أحد السلف: «أكثروا ذكر هذا الذي لم تذوقوا قبله مثله ولن تذوقوه إلا مرة واحدة».

عن البراء - رضي الله عنه - قال كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على شفير القبر فبكى حتى بلَّ الثرى ثم قال" يا إخواني لمثل هذا فأعدوا".

رواه ابن ماجه، وحسنه النووي، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه.

نعم.. مهما طال عمر الإنسان وكثر ماله وطابت حياته فهو «ميت».

عند هانئ مولى عثمان قال: كان عثمان بن عفان تذكر عنده الجنة والنار فلا يبكي ويذكر عنده القبر فيبكي ويتأثر.. فسئل عن السبب فقال:

القبر أول منازل الآخرة.. من نجا فيه نجا فيما بعده..

وتأمل معي هذه الحكمة المباركة في هذا البيت الشعري فيا رعاك الله اسمع:

كـــم من قبور تبنى وما تبنـــا

وكم من مريض عدنا وما عدنا

فكم هي القبور نراها تبنى وما تبنا إلى الله وما تخلصنا من سيئات الأعمال.. وكم من مريض عدنا وما عدنا إلى الله والعمل الصالح والاستعداد ليوم الرحيل.

كهوف مظلمة...

كهوف أحزنت ما أفرحت.. وأزعجت ما أثلجت

كهوف نغصت العيش وكدرته..

كهوف أنزلت من العين دمعها.. ومن النفس همها وحزنها..

كهوف مظلمة..

ألحقت بالسلف الصالح الهموم والأحزان.. فساروا إليها على خوف ووجل.

وصدق الواعظ حينما أنشأ هذه الأبيات:

يا صاحبي إن دمعي اليوم منهمل

على الخدود حكاه العارض الهطل

عـلـــى الأحبة والإخوان إذ رحلوا

إلى المقابــر والألحاد وانتقلــوا

كنــا وكانوا وكان الشمل مجتمعاً

والــدار آهــلة والحبل متصـــل

قـال أبـو الـدرداء في العاقبـة.. ألا أخبركم بيـوم فقري؟ يوم أنـزل قـبري.. وصدق أبو الـدرداء وربي.. صدق فهـذا هو الفقر الأبـدي لا فقـر الدنيا.. ففي هذه الحفـرة الضيقة لا عمل تزيد

بـه الحسنات أو تحط بـه الخطيئات إلا ما قدمت؟ فاليوم حساب ولا عمل..

شهد عمر جنازة وحوله الناس.. فلما وضعوا الميت في لحده.. بكى حتى ابتلت لحيته.. وجثا على ركبتيه عند شفير القبر.. ثم قـال: أيهـا الميت أما أنت فقـد قطعت سفر الدنيـا فطوبى لك إن توسدت في قبرك خيراً.

وكان الحسن بن صالح.. إذا أشرف على القبور بكى وقال: آه ما أحسن ظواهرك.. إنما الدواهي في بواطنك..

كهـوف مظلمـة.. رأيناها كثـيراً وما عملنا لها شيئـاً.. ألهانا عنها طول الأمل.

قـال تعـالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

هذه هي الكهوف المظلمة..

فـأي قلـوب لا ترتـدع.. وأي أعـين لا تدمـع.. وأي قلـوب لا تخشـع.. إن لنـا معهـا حديثـاً وحديثـاً، فالقـرآن لا يتحـدث عن

أناس غرباء بل يتحدث عني وعنك وعن انشغالنا بفعلتنا ولهونا عن هذه الحقائق كم زينا دنيانا وعمرناها وهي الفانية.

«زوروا القبـور.. فإنها تذكركم الآخرة». حديث نبوي.. تفوه به الرسول ﷺ فهل زرناها؟ وهل نظرنا فيها؟ أم منا من لا يريد زيارتها إلا إذا شيع جنازة قريب أو والدٍ أو والدةٍ.

أيها الأحبة الكرام..

نظرة واحدة بعين البصيرة في هذه الكهوف المظلمة والمنازل العجيبـة.. التـي بهـا نعـرف حقـارة الدنيـا وهوانهـا.. فكـم من جنـازةٍ شيعتها وحملتها بل كم هي الجنائز التي أودعناها القبور وارتحلنا عنها..

قال الأعمش: كنا نشهد الجنازة نفسها..

وقال ثابت البناني... كنا نشهد الجنازة فلا نرى إلا باكياً على الموت وحال الميت..

وقال الحسن البصري.. وهو من هو في الوعظ والإرشاد.

«الجنازة.. يا لها من موعظة.. ما أبلغها وأسرع نسيانها.. يا لها موعظة لو وافقت من القلوب حياة.. ثم قال.. يا غفلة شاملة للقوم.. كأنهم يرونها في النوم.. ميت غدٍ يدفن ميت اليوم... ».

وقد أبصر أبو الدرداء رجلاً في جنازة فقال له من بجانبه: أبا الدرداء.. جنازة من هذا؟ فقال أبو الدرداء.. وعيناه تدمعان متفكراً في سؤاله.. من هذا؟ هذا أنا وأنت. قال تعالى: (إنك ميت وإنهم ميتون).

نعم.. أخي الكريم.. تصور نفسك وأنت مكان هذا المدفون والميت، فالسعيد من وعظ بغيره.. والشقي من وعظ بنفسه.. وعزة الله وجلاله إنها لنعمة أن أعطاك الله العبرة من غيرك ولم يعطها غيرك للعبرة منك.. فأعطاك الفرصة أن تحاسب نفسك وتستعد لذلك المصرع.. في تلك الكهوف المظلمة.. وأنت

لو كنت مكانه لم تدر، ما مصيرك في هذا اللحد المظلم الموحش.. لا أنيس معك.. ولا جليس إلا أعمالك الصالحة.. فلمثل هذا فأعدوا.. ولمثل هذا فليعمل العاملون.. وليعد المذنبون المفرطون.. قال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

وقف محمد بن أسلم على شفير قبر وقال:

ما لي وللناس.. كنت في صلب أبي وحدي..

ثم صرت في بطن أمي وحدي...

ثم دخلت الدنيا وحدي..

ثم تفيض روحي وحدي..

وأدخل في قبري وحدي..

ويأتيني منكر ونكير فيسألني وحدي..

ثم أكون يوم القيامة وحدي..

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾.

فأحاسب وحدي.. وتوزن أعمالي وحدي.. فإن بعثت إلى الجنة بعثت وحدي وإن بعثت إلى النار بعثت وحدي.

قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾.

خطب قس بن ساعدة الأيادي.. وكان في الجاهلية آنذاك يحذر قومه من الموت وما بعده من القبور والنزول فيها.. ،كان

مما قال:

ما لي أرى الناس يذهبون ولا يعودون.. أرضوا بالمقام فأقاموا.. أم تركوا هناك فناموا.. يا معشر إياد.. أين الآباء والأجداد؟ أين الفراعنة الشداد؟ أين من بنى وشيد؟ وزخرف ونجد؟ أين المال والولد؟ أين من طغى وبغى؟ وتجبر وعلا.. وقال أنا ربكم الأعلى.. لقد طحنهم الثرى بكلكة.. ومزقهم الليل بطوله.. فتلك عظامهم بالية.. وبيوتهم خاوية.. عمرتها الذئاب العاوية.. كلا بل هو الله المعبود.. ليس بوالدٍ ولا مولود.

ثم أنشئ قائلاً:

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصـــائر
لما رأيــت مورداً للقوم ليس لـهــا مصـــــادر
ورأيت قومي نحوها يمضى الأصاغر والأكابر
أيقنــت لا محالة أني حيث صار القوم صــائر

أحبابي الكرام..

أمـا حقيقـة الكهـوف المظلمة.. ومـا عملت في أهلهـا فيصفها لنا الخليفة الزاهد أمير المؤمنين.. عمر بن عبدالعزيز – رحمه الله – :

قال عنه ميمون بن مهران:

خرجـت مع عمر بن عبدالعزيـز.. إلى المقبرة، فلما نظر إلى القبور بكى.. ثم أقبل علي.. فقال: أبا أيوب.. هذه قبور آبائي بني أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم.. أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات واستحكم فيه البلاء.. نادهم إن كنت مناديـاً.. وأدعهـم إن كنت داعياً.. سـل غنيهم ما بقي من غناه؟.. و سـل فقيرهـم ما بقـي من فقـره؟.. اسألهـم عن الألسـن التي يتكلمون بها؟ وعن الأعين التي يبصرون بها؟ وعن الأيادي التي

يبطشون بها وعن الأرجل التي يمشون بها.. سلهم عن الجلود الرقيقة.. والوجوه الحسنة.. والأجساد الناعمة.. ما صنع بها الديدان تحت الأكفان.. لقد عفرت الوجوه.. ومحت المحاسن.. مزقت الأشلاء وفصلت الأعضاء.. أين بيوتهم وقصورهم؟ أين أموالهم وأولادهم.. أين جمعهم وكنوزهم.. وكأنهم ما وطئوا فراشاً ولا وضعوا هنا متكأ.. ولا غرسوا شجراً أليسوا في منزل الخلوت؟ أليس الليل والنهار عليهم سواء.. أليسوا في مد لهمة ظلماء.. قد حيل بينهم وبين العمل.. وفارقوا الأحبة.. كم من ناعم وناعمة أضحت وجوههم بالية.. وأجسادهم من أعناقهم

بائنة.. وأوصالهم ممزقة.. قد سالت الحدق على الوضبات.. وامتلأت الأفواه دماً وصديداً قد دبت دواب الأرض في أجسادهم.. ففرقت أعضاءهم.. ثم لم يلبثوا إلا يسيراً.. حتى عادت العظام رميماً.. قد فارقوا السعة إلى الضيق.. تزوجت نساؤهم وأقتسم المال أولادهم.. فمنهم والده الموسع له في قبره.. ومنهم المضيق عليه. يا مغمض الميت.. يا مغسله.. يا مكفنه.. يا حامله.. يا دافنه... ما حالي وحالك حينما يؤذن بخروجنا من الدنيا.. فنكون أموات بعد أحياء.. ومغسلين بعد غاسلين ومكفّنين بعد مكفّنين ومحمولين بعد حاملين ومدفونين بعد دافنين.. لا إله إلا الله.. إنها لعظة ولعبرة.

قال عمر بن عبدالعزيز.. ناداني القبر.. من خلفي.. يا عمر ألا تسألني ما صنعت بالأحبة.. قلت: بلى.. قال: خرقت الأكفان ومزقت الأبدان ومصصت الدم وأكلت اللحم.. ألا تسألني ما صنعت بالأوصال.. قلت: بلى.. قال: نزعت الكتفين من الذراعين.. والذراعين من العضدين، والعضدين من الكتفين

والوركين من الفخذين والفخذين من الركبتين.. والركبتين من الساقين.. والساقين من القدمين ثم بكى عمر.. وقال: إن الدنيا بقاؤها قليل.. وغنيها فقير، وشبابها يهرم وحيها يموت.

كهوف مظلمة.. تعني الفراق في غاية الألم والحرقة.

كهوف مؤلمة + كهوف قاسية= كهوف تأخذ بمجامع النفس.

كهوف تأخذ بمعاقد أطراف الجسد حين ذكرها وتذكرها.

❊ ❊ ❊ ❊